خطبة صلاة الجمعة 6/ 3/ 2020 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(معينات الصبر)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ [الجن: 1] قال ابن كثير: يهدي إلى الرشد أي يهدي إلى السداد والنجاح.

وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ [الكهف:10] قال المفسرون: معنى قوله هيئ لنا من أمرنا رشدا، يَسِّر لنا طريقاً سديداً للخير وللحق. والرَشَد والرُشْد هو الاهتداء لطريق الحق.

أخرج أبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من يطع الله ورسوله فقد رَشَد، ومن يعصهما فإنه لا يضرُّ إلا نفسَه، ولا يضرُّ الله شيئا**».

أيها الإخوة:

هذه الخطبة الثامنة عشرة في سلسلة **(دليل إرشادي)**، تتناول كل خطبة منها مشكلة اجتماعية أسرية أو مالية أو أخلاقية وقع فيها عددٌ منا وهو مهتم لمعرفة طريق الخلاص منها، وتقدم الخطبة مادة إرشادية للمبتلى تعينه على تبصر طرق الحل، وتمكنه من الاهتداء للصواب في التعامل مع ما وقع فيه.

وليست الخطب قوالبَ جاهزة تصلح لتطبيقها على جميع الواقعين بالمشكلة؛ لكنها قواعدُ مساعدة تفيد في تبصر طريق الحل، إذْ الاختلاف بين البشر سنة، والقضايا الاجتماعية تحتاج مرونة.

عنوان خطبة اليوم: **(معينات الصبر)**

المسألة:

كتب يقول: أُصيب قريبي في هذه الأزمة بشدائد ومحن متتالية؛ فقَد بدايةً بيته ومحله، ثم انتقل إلى مكان آخر فَفَقَد فيه ابنه، ومرض مرضاً ألزمه الفراش ومنعه من كسبه ورعاية أهله، والرجل في كل ذلك صابر محتسب، لكنني بدأت أخاف عليه من التضجر أو الخور، وأنا كثير الزيارة له والمواساة لأنه يحبني ويحب كلامي، فماذا أقول له وكيف أدعوه إلى الثبات على الصبر، أرشدوني.

الدليل الإرشادي:

في الدليل ثلاث فقرات: حسن ثواب الصبر وفضيلته، العطايا السالفات تواسي في الرزايا الحادثات، قصص الصابرين مثبتة للمبتَلَين.

أولاً: حسن ثواب الصبر وفضيلته:

وردت مادة (صبر) في القرآن الكريم في تسعين موضعاً، فقد أمر الله نبيه بالصبر فقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل 127] ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف 35] وأمر الله به المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران 200] وأثنى على أهله ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة 177] وأخبر بمحبته للصابرين ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران 146] ومعيته لهم ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال 46].

وأخبر أن الصبر خير لأصحابه، فقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل 126] ووعدهم أن يجزيهم أعلى وأوفى وأحسنَ مما عملوه، فقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل 96]. وبَشَّرهم بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة 155] وأخبر أن جزاءهم الجنة: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ [الإنسان 12].

أخرج النسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إِنَّ اللهَ لا يرضى لعبده المؤمن إذا ذهبَ بصفِيّه من أهل الأرض فصبر، واحتَسَبَ وقال ما أُمر به بثواب دونَ الجنةِ»**

وأخرج الموطأ عن عطاء بن يسار: أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا مرض العبدُ بعث الله إليه مَلَكين، فقال: انظرا ماذا يقول لعُوَّادِه؟ فَإِنْ هو إذا جاؤوه حَمِدَ الله وأثنى عليه، رَفَعَا ذلك إلى الله – وهو أَعلم – فيقول: لعبدي عليَّ إنْ توفيتُهُ أنْ أُدخِلَه الجنةَ، وإن أنا شَفيتُه أَن أُبْدِله لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وأن أكفِّر عنه سيئاتِهِ**».

وأخرج الترمذي عن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**يَوَدُّ أهل العَافِية يوم القيامة، حين يُعْطَى أهلُ البلاء الثَّواب، لو أن جُلودَهم كانت قُرِضت في الدنيا بالمقاريض**».

فتذكر ثوابِ الصبر وجميلِ مآل صاحبه، وملاحظةُ حسن الجزاء، يثبتان المرء عند الشدائد والمحن، وقد أجمع عقلاءُ كلِّ أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم. وأن من رافق الراحة فارق الراحة. وما أقدم أحد على تحمل مشقة عاجلة إلا لثمرة مؤجلة.

فذكِّر صاحبك بحسن ثواب الصبر وفضيلته تكن عوناً له في شدته، ولعلك تصحبه إلى مجالس علم تتحدث عن ذلك أو تقدم له تسجيلاتٍ في ذلك.

ثانياً: العطايا السالفات تواسي في الرزايا الحادثات:

أيها الإخوة:

إنْ تذكّرَ العبدُ عطايا الله تعالى له السالفاتِ والحاضراتِ، وعدَّ نعمه جل جلاله عليه الدنيوية والأخروية يهون على الممتحن كلّ بلية.

فالمرء فينا يعجز عن إحصاء نعم الله عليه ويأس من حصرها لديه، وما البلاء النازل إلا كقطرة في بحر النعم الهادر. ولئن أخذ الله قليلاً فقد أبقى كثيراً، ولئن ابتلى مرة فقد عافى مرات.

دعا الوليد بن عبد الملك –أثناء خلافته– عروة بن الزبير لزيارته في دمشق، فلبّى دعوته، وصحب معه أكبر بنيه، ولما قدم على الخليفة رحب بمقدمه أعظم ترحيب. ثم شاء سبحانه وتعالى أن يمتحنه، وذلك أن ابن عروة دخل على اصطبل الوليد ليتفرج على جياده الصافنات، فرمحته دابة رمحةً قاضية أودت بحياته. ولم يكد الأب المفجوع ينفض يديه من تراب قبر ولده حتى أصابت إحدى قدميه "الآكلة" فتورمت ساقه، وجعل الورم يشتد، ويمتد بسرعة مذهلة.

فاستدعى الخليفة لضيفه الأطباء من كل جهة، وحضهم على معالجته بأية وسيلة، لكن لأطباء أجمعوا على أنه لا مفر من بتر ساقه قبل أن يسري الورم إلى كل جسده، ويكون سبباً في القضاء عليه، فلم يجد بداً من الإذعان لذلك.

ولما صحا عروة من بتر قدمه دعا بقدمه المبتورة فناولوه إياها، فجعل يقبّلها بيده ويقول: أما والذي حملني عليك في عتمات الليل إلى المساجد، إنه ليعلم أني ما مشيت إلى حرام قط.

وقد شق على الوليد بن عبد الملك ما نزل بضيفه الكبير من النوازل فقد احتسب ابنه وفقَد ساقه في أيام معدودات فجعل يحتال لتعزيته وتصبيره على ما أصابه، وصادف أن نزل بدار الخلافة جماعة من بني عبسي فيهم رجل ضرير فسأله الوليد عن سبب كف بصره فقال: يا أمير المؤمنين: لم يكن في بني عبسي رجل أوفر مني مالاً ولا أكثر أهلاً وولداً، فنزلتُ مع مالي وعيالي في بطن واد من منازل قومي، فطرقنا سيل لم نر مثله قط، فذهب السيل بما كان لي من مال وأهل وولد ولم يترك لي غير بعير واحد، وطفل صغير حديث الولادة وكان البعير صعباً فند مني فتركت الصبي على الأرض ولحقت بالبعير فلم أجاوز مكاني قليلاً حتى سمعت صيحة طفلي فالتفت فإذا رأسه في فم الذئب وهو يأكله، فبادرت إليه غير أني لم أستطع إنقاذه إذ كان قد أتى عليه فلحقت بالبعير، فلما دنوت منه رماني برجله على وجهي رمية حطمت جبيني، وذهبت ببصري، وهكذا وجدت نفسي قد غدوت في ليلة واحدة من غير أهل ولا ولد ولا مال ولا بصر.

فقال الوليد لحاجبه: انطلق بهذا الرجل إلى ضيفنا عروة بن الزبير وليقص عليه قصته ليعلم أن في الناس من هو أعظم منه بلاءً، ولما حمل عروة إلى المدينة وأُدخِل على أهله بادرهم قائلاً: لا يهولنكم ما ترون فلقد وهبني الله عز وجل أربعة من البنين ثم أخذ منه واحداً وأبقى لي ثلاثة فله الحمد والشكر، وأعطاني أربعة من الأطراف ثم أخذ منها واحداً وأبقى لي ثلاثة، وايم الله لئن أخذ الله لي قليلاً فقد أبقى لي كثيراً، ولئن ابتلاني مرة فلطالما عافاني مرات.

ولما عرف أهل المدينة بوصول إمامهم وعالمهم عروة بن الزبير تواردوا على بيته ليواسوه ويعزوه، فكان من أحسن ما عزي به كلمةٌ قالها إبراهيم بن محمد بن طلحة حيث قال له: أبشر يا أبا عبد الله فقد سبق عضو من أعضائك وولد من أبنائك إلى الجنة، والكل يتابع البعض إن شاء الله تعالى. ولقد أبقى الله لنا منك ما نحن فقراء وعنه غير أغنياء من علمك وفقهك ورأيك نفعنا الله وإيانا به. والله ولي ثوابك والضمين بحسن حسابك.

فتذكر العطايا السالفات والنعم الكثيرات تواسي المرء في الرزايا الحادثات.

ثالثاً: قصص الصابرين مثبتة للمبتلين:

قال الإمام الجُنيد رحمه الله تعالى: "الحكايا جُنْدٌ من جنود الله تعالى، يقوّي بها إيمانَ المريدين، فقيل له: هل لهذا من شاهد؟ فقال: قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود:120]".

فقصص الصابرين في الماضين والتالين مثبتةٌ لمن ابتلي ببلاء مقويةٌ لعزيمته مواسيةٌ له في مصابه.

أخرج البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال: «اشتكى ابن لأبي طلحةَ، فمات وأبو طلحةَ خارج، فلما رأتْ امرأتُهُ أنه قد مات هيَّأت شيئاً ونَحَّتْه في جانبِ البيت، فلما جاء أبو طلحةَ قال: كيف الغلامُ؟ قالتْ: قد هدأتْ نَفْسُهُ، وأَرجو أن يكون قد استراح، فظنَّ أبو طلحة أنها صادقة، قال: فبات، قال: فلما أصبح اغتسل، فلما أَراد أن يخرج: أعلمته أنه قد مات، فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أخبِر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بما كان منهما، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: لعله أَن يبارك لهما في ليلتهما.

قال سفيان بن عيينة: فقال رجل من الأَنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد، كلُّهم قد قرأ القرآنَ».

وأخرج الإمام مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها: قالت: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**مَا مِن مُسلم تُصِيبُه مصيبة فيقولُ ما أمره الله: {إِنَّا لله وَإِنَّا إليه رَاجعون} [البقرة: 156] اللهم أجُرْني في مصيبتي، وأَخْلِفْ لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها**» قالت: فلما مات أبو سلمةَ قلتُ: أيُّ المسلمين خير من أبي سلمة؟ أوَّلُ بيت هاجر إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، ثم إني قُلتُها، فأَخْلَفَ الله لي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، قالتْ: فأرسل إليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حاطِبَ بن أَبي بَلْتَعةَ يَخطُبني له، فقلتُ: إن لي بنتاً، وأنا غَيُور، فقال: «**أمَّا ابنتُها فندعو اللهَ أن يغنيَها عنها، وأَدعو الله: أَن يَذْهَب بالغَيْرَةِ**».

فقصص الصابرين مثبتة للمبتلين.

وبعد أيها الإخوة:

نقول للأخ صاحب المسألة وأشباهه: إن سعيك لمواساة صاحبك وتعزيته في مصابه وتثبيته في محنته فضيلة كبيرة، فالله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، فأخبر صاحبك مرات ومرات بثواب الصبر وفضيلته، وذكّره بنعم الله تعالى عليه السالفات والحاضرات، وقصَّ عليه من أنباء مَن أُصيب قبله ومعه من الصالحين ما تثبت به فؤاده، وأكثر من الدعاء له ولنفسك بالعافية، فقد قال النبي صلى الله

عليه وسلم: «سَلْ رَبَّكَ العافيةَ والمُعَافَاةَ في الدنيا والآخرة، ... فإذا أُعطيتَ العافية في الدنيا، وأعطيتها في الآخرة، فقد أَفلحتَ» والله أعلم.

ختاماً – أيها الإخوة:

أخرج الإمام مسلم بإسناده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل».

والحمد لله رب العالمين